اللهجات العربية
بين
الأصالة والتحديث

للأستاذة رشيدة محمد رشاد

يجدر بالباحث اللغوي عن اللهجات العربية أن يكشف عن حقائق اللهجات العربية، وعن الأدوار التي مرت بالفصحى بعد الحدث الكبير «الإسلام» .. من انتشارها في جميع الأقطار المتاخمة لجزيرة العرب، وعما أصابها من تيارات لغوية أدت إلى تفرعها إلى لهجات إقليمية ميزت بين كل إقليم وآخر..

ذلك هو ما يصل بالبحث إلى تفهم الصلات والوشائج بين جميع تلك اللهجات المتفرعة عن الفصحى، ويؤكد في ذات الوقت وحدة النطق في الأمم العربية، والصواب اللغوي عند العرب القدامى وفصاحة القبائل..

إن الأقدمين قد خلطوا بين اللغة واللهجة، فقد كانوا يطلقون لفظ اللغة ويريدون منه اللهجة وهذا موجود بكثرة في المعاجم العربية وفي بعض الروايات الأدبية .. ومن ذلك مثلاً أن أعرابيين اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد، ونطقها الآخر بالسين، فاحتكما إلى أول قادم عليهما، ولكنه قال: لا أقول كما قلتما ولكني أقول «الزقر». ثم يعقب

على ذلك بأن يقول: فدل ذلك على أنها ثلاث لغات. وليس المراد منها اللغات على الإطلاق الحقيقي للغة، بل إن المراد منها اللهجة، وقد أدى عدم التفرقة بين اللغة واللهجة إلى اللبس، يعزز ذلك ما ورد لنا من قول أبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين عند تعرضه لنشأة الإبدال «ليس المراد من الإبدال أن يتعمد العرب تعويض حرف من حرف، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان والمعنى واحد.

كما أن العرب الأقدمين يطلقون لفظ اللحن على اللهجة، وقد ظهر ذلك عند الحديث عن مسألة نحوية .. فيروى لنا أن أعرابياً يقول في معرض الحديث عنها: «ليس هذا لحني ولا لحن قومي» ذلك يوضح لنا مدى الخفاء في فهم المدلولات لتلك الألفاظ.

والأمر بالنسبة للغة يؤكد اختلاف أنظار العلماء حولها فمنهم من يعرفها على أساس عقلي أو نفسي، الأمر الذي يتطابق مع التعريف القائل بأن اللغة: استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار ونقلها من شخص إلى آخر، ويؤيد هذه المدرسة العالم الأمريكي «سابير». أما علماء الفلسفة والمنطق فينظرون إلى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الأفكار، يقول الأستاذ جفونز في كتابه «مبادئ دروس المنطق» إن للغة ثلاث وظائف:

١ - كونها وسيلة للتوصيل.
٢ - كونها مساعداً آلياً للتفكير.
٣ - كونها أداة للتسجيل والرجوع.

وهناك نظرة أخرى للغة تتعلق بوظيفتها في المجتمع يعبر عنها اللغوي الأمريكي أو جارستير تفنت بأنها نظام من رموز ملفوظة عرفية، بوساطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعنية..

ذلك هو ما يكشف لنا مجموعة من الحقائق الهامة:

إن تعريف علماء النفس والمنطق يهدف إلى ناحية واحدة لا تتفق والمطلوب من اللغة في المجتمع الإنساني، لأنها لا تقف عند حد التعبير عن الأفكار وتوصيلها إلى الأذهان

لأن ذلك يقصر وظيفة اللغة على طبقة من الناس، وهم أهل الفكر وقت اشتغالهم بأمور فكرية، وفيا عدا ذلك لا يمكن أن يقال إن اللغة أداة لنقل الأفكار، وإنما هي وسيلة للتعاون والترابط بين أفراد المجتمع، وهناك من يتكلم في موضوعات ولا يعنيه نقل الفكرة لغيره، وإنما يكون قصده الترفيه والتسلية..

ويبدو لنا أن رأي علماء المجتمع بتعريف اللغة تعريفاً يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو خير ما تعرف به اللغة، وإذا كان ذلك صحيحاً فينبغي أن نشير إلى تعريف الأقدمين للغة وهو أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.

وهذا التعريف يتمشى مع وجهة نظر علماء المجتمع .. إذ أن الأصوات ما هي إلا رموز صوتية تنبئ عن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج إليه الإنسان في حياته سواء أكان احتياجاً عادياً كشئون الناس في حياتهم التي تتلاءم مع احتياجاتهم اليومية، أم كان احتياجاً ضرورياً كاحتياج الباحث للتعبير عن الأفكار القائمة بنفسه لتوصيلها إلى أذهان الدارسين.

اللهجـــة

اللهجة بإسكان الهاء أو فتحها ـ وإن كان الفارابي قد ارتأى أن الفتح ضعيف ـ هي قيود صوتية خاصة تلحظ عند أداء الألفاظ في بيئة معينة، وهذا واضح في جميع الجهات عربية وغير عربية، نحن نجد مثلاً في العامية من ينطق القاف العربية همزة مثل «آل» في «قال» و«برتآن» في برتقال، وفي العربية نجد أن جمهرة العرب تحرك الهاء من «هم» بالضم إن لم تسبق بياء أو كسر مثل قوله تعالى: «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين» فإن سبقت بالياء أو الكسر كسرت الهاء كقوله تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم».

لكن ربيعة تضم الهاء من هم مطلقا دون نظر لما يسبقها من حركة أو حرف، كما أن قبيلة تميم تبدل الهمزة الساكنة مدة من جنس حركة ما قبلها مثل بيروذيب، ويؤكد ذلك نطق العامة حين ينطقون «الفاس والراس»، وكذلك نجد **قبائل قيس وتميم وأسد** يتجهون

إلى الانتماء بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء، وبماثله نطق أهل القرى في إمالة الفتحة نحو الكسرة في كلمات عائشة وخديجة وفاطمة..

كذلك نجد بعض الحروف تنطق مفخمة عند فريق من العرب، ومرققة عند غيرهم. فلفظ الصلاة يفخم عند بعض الناطقين، ولذا تكتب ألفه حسب الرسم العثماني في المصحف واواً مثل «الصلٰوة» مع مدة فوق اشعاراً بحالها بينما ترقق عند فريق آخر.

هذه الأسئلة العديدة تعطينا أدق صورة عن اللهجات وأنها ترجع إلى الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها، أو إلى بنية الكلمة ونسجها اللغوي، أو إلى معنى الكلمة مثل كلمة «وثب» فإنه يقصد منها القفز عند الجمهرة والجلوس عند حمير، وكلمة «الهجرس» التي يقصد منها القرد عند أهل الحجاز، والثعلب عند بني تميم. **وهنا يلزم التأكيد على أن النواحي المتعلقة بالبنية والمعنى يجب أن تكون قليلة حتى لا تصبح اللهجة غريبة على أخواتها بعيدة عن جارتها، وبذلك يصبح التفاهم عسيراً بين أصحاب اللهجات المتجاورة.**

وهنا يصبح أيضاً من الواجب التعرض لأهم الصفات الصوتية التي تؤدي إلى الخلاف بين لهجات اللغة الواحدة:

١ـ اختلاف في مخرج بعض الأصوات اللغوية، فالجيم العربية من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، بينما تبرز الجيم في القاهرة مثلاً من أقصى اللسان مع ما يقابله من الحنك الأعلى.

٢ـ اختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات، مما يترتب عليه خلاف في نطق الحرف ذاته، مثلاً نرى بعض القبائل ترقق الحرف في الوقت الذي يكون فيه هذا الحرف مفخماً عند قبيلة أخرى.

٣ـ اختلاف في مقاييس أصوات اللين .. والمقصود من اللين هو حروف المد وهو حرف العلة الساكن الذي يتجانس مع الحركة السابقة عليه، فالفتح قبل الألف، والضم قبل الواو، والكسر قبل الياء، إن الاهتمام بحروف اللين «المد» له أثر هام في تعليم اللغات لوضوحها في السمع وشيوعها في الكلام، وبروز الخلل منها عند أي

انحراف يصيب نطقها.

٤ ـ تباين في النغمة الموسيقية للكلام.

٥ ـ اختلاف في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين تتأثر ببعضها يتضح ذلك عندما نرى جمهرة العرب تقلب الواو تاء إذا وقعت فاء لافتعل مثل اتصل واتقى، وأصلها «او تصل واوتقى» وذلك حتى لا تكون عرضة لقلبها إلى صور أخرى نتيجة تعرضها للحركات المختلفة بينما لا يعبأ «الحجازيون» بهذا التلاعب ولذلك يتركون الواو متأثرة بالحركة السابقة عليها، فتقلب إلى حروف مجانسة لتلك الحركات.

اشتقاق اللهجة

اللهجة مأخوذة من لهج بمعنى امتص، مثل قولهم «لهج الفصيل ضرع أمه» أي امتص ما فيه من اللبن، لأن الإنسان يتلقى اللغة من مخالطيه، كما يتلقى الفصيل اللبن من أمه..

ويصح أخذ اللهجة من لهج بمعنى أولع وأغرم؛ لأن مداومة المتكلم النطق على منحى معين، فكأنه أولع بذلك النطق فلم يعدل عنه إلى غيره، وكلا الاشتقاقين يناسب ماسقناه من أمثلة ومعان، وإن كان الاشتقاق الأول أوضح وأظهر..

والمتأمل في لفظ «لهجة» العربية، **Langue** الموجودة في الفرنسية **Language** الثابتة في الانجليزية يجد أن هناك اتصالاً قوياً بين تلك الألفاظ كما هو واضح من الموازنة بينها مما يؤكد للباحث اتصال تلك الألفاظ بعضها ببعض..

صلة اللغة باللهجة

يمكن القول أن هناك اتصالاً بين اللغة واللهجة من ناحية الصوت، وإن كانت جهة الارتباط بينها مختلفة؛ إلا أنه يجدر أن نضع أمامنا حقيقة هامة وهي أن اللهجة تتولد من اللغة وتتفرع عنها، وإذا ما تهيأت الأسباب للهجة أن تنمو وتكتمل وتفي بحاجات المجتمع، فإن العوامل اللغوية تحتم على الباحثين إطلاق اللغة على تلك اللهجة .. وهذا

يظهر بوضوح في اللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية، فإنها لهجات تفرعت من أصلها اللاتيني ... كما أن العربية بعد الفتح الإسلامي نزلت إلى ميدان الحياة في الأقطار المغزوة في الشام والعراق ومصر، واضطر أصحاب تلك البلاد أن يتعلموا تلك اللغة ليتفاهموا مع أولى الأمر في تلك البلاد، وليعرفوا أحكام هذا الدين الذي انضووا تحت لوائه، إلا أنه لم يكن من اليسير عليهم أن يندمجوا في هذه اللغة ويتعرفوا عليها التعرف الصادق، فظهر لديهم انحراف في النطق العربي الذي أدى مع مرور الزمن إلى أن توجد سبل للتفاهم تتفاوت بتفاوت الأقطار، فأضحى للعربي لهجات متفاوتة .. وأصبح للسوري لهجة، وللعراقي لهجة، وللمصري لهجة.. وهكذا.

وأن تلك اللهجات نمت وازدهرت ووفت بحاجة مجتمعاتها ولم تعد بحاجة إلى الاتصال بأصلها الأصيل وهو العربية .. ولذلك أصبحت جديرة بأن يطلق عليها اسم اللغة المصرية واللبنانية والعراقية والليبية، والأمر وصل إلى أكثر من هذا، فقد وجدنا عدة لهجات في الدولة الواحدة، مثل لبنان، نجد هناك لهجة الدروز، ولهجة المارونيين، ولهجة بيروت، ولهجة أبناء الشمال..

وعلى ضوء هذه الحقائق يمكن أن يقال: إن العرب جميعاً يتكلمون لغة واحدة هي العربية، وقد أثمرت العوامل اللغوية فأدت إلى تفرع اللغة في العصر الحديث إلى لهجات كما حدث قديماً حينما نشأت اللهجات المشهورة مثل عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة ومضر، وطمطمانية حمير، وتلتلة بهراء ولخلخانية الشحر.

التوزيع الجغرافي للغة واللهجة

إذا أمكن تحديد الفواصل الجغرافية بين اللغات فليس من السهل وجود تلك الحواجز بين اللهجات للتداخل القوي بينها، بل إنه توجد أمكنة دون فواصل، ويتكلم بعضها بلغة وبعضها الآخر بلغة أخرى، كما يشاهد ذلك في القرى الشمالية الواقعة على الحدود بين سوريا وتركيا..

إذا أردنا مثلاً أن نحدد جغرافية اللغة كان ذلك من السهولة بمكان، وهو أنها تبدأ من الجزيرة العربية، وتمتد في ظلال الأقاليم التي انتشرت في ربوعها على أثر العوامل التي أدت إلى ذلك وخاصة انتشار الإسلام..

وتظل ممتدة بين الشام والعراق إلى أن تصطدم بحواجز لغوية تجعلنا نتعرف على جغرافية اللغة العربية. وهي أنها تبدأ من جزيرة العرب وتنتهي عندما تبدأ في صدامها بلغات أخرى في بقاع مغايرة كالفارسية في إيران. والتركية في تركيا. والحبشية في الحبشة.

وإذا أردنا التعرف على بدء اللهجات العربية أو نهايتها تعذر علينا ذلك. وقد قال أحد اللغويين إنه لا توجد ظواهر لغوية صوتية ونحوية ومعجمية تميز تمييزاً تاماً بين منطقة وأخرى وقد قال العالم اللغوي «جاستن باري» ليست هناك حدود حقيقية تفصل الفرنسيين أهل الشمال من أهل الجنوب. إن لغتنا العامية تنتشر في طول البلاد وعرضها بصورة تشبه لوحة ذات ألوان مختلفة. ولكنها جميعاً يتداخل بعضها ببعض بدرجة لاتسمح برؤية الانتقال التدريجي من نقطة إلى أخرى».

وينفي «جوهان شميدث» وجود لهجات اللغة الواحدة، وهو صاحب نظرية الموجة التي يرى فيها أن كل ظاهرة لغوية تنتشر كالموجة فوق كل منطقة، وأن كل موجة من هذا النوع ليست لها حدود معينة في تقدمها التدريجي، وقد استخلص «شميدث» هذه النظرية من دراسته التي أجراها في اللغات الهندية الأوربية؛ حيث لم يجد اتحاداً بين خطوط توزيع الظواهر اللغوية المختلفة بدرجة تسمح بالقول بوجود لهجات مختلفة..

وقد عارض «مييه العالم الفرنسي» وجهة «شميدث» بنفي اللهجات الهندية الأوربية بناء على التداخل المقام بين اللهجات الذي يجعل الصعوبة قائمة في وضع خطوط دقيقة للهجات المختلفة. اعتماداً على أنه من الممكن القول بوجود لهجات مختلفة مهما اتحدت تلك اللهجات، ويتحقق ذلك بالتعرف على السمات والخصائص التي تتحد في منطقة ولا توجد في المنطقة الأخرى، وعلى ذلك فإن الرسم الجغرافي لا يتحقق بناء على أمكنة من قرى وشوارع، وإنما تحدده السمات والخصائص.

ومن ذلك يتضح أن اللهجات في اللغة العربية والواقعة بين الأمم المتعاقبة هي لهجات وليست لغات. فالعربية السورية، والعربية العراقية، والعربية الأردنية هي لهجات للغة العربية.

ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى أنه كان هناك تصارع بين اللهجات حتى كتب «للقرشية» التغلب آخر الأمر بسبب النفوذ الديني لقريش لقيامهم بسدانة البيت الحرام،

ونفوذهم التجاري والسياسي واللغوي ... وقد استفادت القرشية من المفردات والأساليب فتنوعت فنون القول، وقد غنيت بالمترادف والمشترك والمتضاد، لذلك أصبحت هذه اللغة هي اللغة القومية للعرب جميعاً يؤكد ذلك أن الشعر كان بلغة موحدة إلا في القليل النادر، وقد نزل القرآن الكريم بهذه اللغة التي كانت مساندة عند العرب وقد أكسبها كثيراً من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والزكاة والصوم والحج بمعانيها الشرعية .. إلا أنه قد بقي لكل قبيلة بعض الألفاظ التي كانوا يستعملونها في مخاطبتهم وفي النادر من أشعارهم، وهذه البقية من اللهجات تم التعرف عليها من مصدرين: أولهما القراءات التي رويت في القرآن الكريم عن أئمة القراء الموثوق بهم، والتي نقلت إلينا قراءاتهم من طرق لايتسرب الشك إليها. وقد روى عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: دخلت المسجد أصلي فدخل رجل فافتتح النحل فقرأ. فخالفني في القراءة، فلما انتفل من صلاته قلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ. ثم جاء، فقام يصلي فقرأ وافتتح فخالفني وخالف صاحبي. فلما انتفل قلت من أقرأك؟ قال رسول الله ﷺ ، وقال: فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كان في الجاهلية. فأخذت بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبي ﷺ فقلت استقرئ هذين. فاستقرأ أحدهما وقال أحسنت. فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كنت في الجاهلية، ثم استقرأ الآخر وقال أحسنت فدخل صدري من الشك والتكذيب أشد مما كنت في الجاهلية، فضرب رسول الله صدري بيده وقال: أعيذك بالله يا أبيّ من الشك ثم قال: إن جبريل عليه السلام آتاني فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد فقلت اللهم خفف عن أمتي، ثم عاد فقال إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين فقلت اللهم خفف عن أمتي، ثم عاد وقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف.

إن هذا الحديث صريح في إجازة النبي ﷺ القراءات التي هي مصدر لاختلاف اللهجات .. كذلك مارواه الثقات في كتب النحو والأدب واللغة والتاريخ من آثار تلك اللهجات في الإبدال والتصحيح والإعلال والاختلاف في الإعراب. والتردد بين الإعراب والبناء والزيادة والنقصان والفك والإدغام والإمالة والترقيق والتفخيم والإخفاء والإظهار والقلب المكاني «تقديم بعض الحروف على بعض» والمشترك والمتضاد والمترادف..

كما أن هناك ثلاثة أنواع من اللهجات منها من هو منسوب إلى أصحابها ولها لقل تعرف به مثل العنعنة، ومنها من ليس لها لقب تعرف به، ومنها لهجات لم تنسب لأحد وليس لها لقب تعرف به.

فهناك العنعنة وهي إبدال الهمزة المفتوحة عيناً إذا وقعت أول الكلمة كقول جران العود:

فما ابن حتى قلن ياليت عنناتراب   وعن الأرض بالناس تخف

وكقول الشاعر:

أعن ترسمت من خرقاء منزله   ماء الصبابة من عينيك مسْجوم

وأصحاب هذه اللهجة هم تميم ومن جاورهم من أسد وقيس..

ومن النوع الأول أيضاً الفحفحة، والمشهور فيها أنها إبدال الحاء من حتى عينا، وبها قرأ عبدالله بن سعود «ليسجننه عن حين» فلما بلغ سيدنا عمر بعث إليه يقول: إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش، وتسمى فحفحة هذيل أي تردد صوتها في حلوقها مشابهاً للبحة».

أما النوع الثاني فهي لهجات يعرف أصحابها وليس لها اسم يخصها من ذلك:

١ ـ تبدل ألف هنا الإشارية هاء فيقولون: هنه. وهي موافقة للعامة في مصر وهذا منسوب لقيس وتميم..

أما النوع الثالث فهي لهجات لا اسم لها ولم تنسب لأحد، مثل إبدال آخر بعض الكلمات المجرورة ياء كقولهم التعالي والأراني في الثعالب والأرانب ومن ذلك قول النمر بن تولب يصف عقاباً:

لها أشارير من لحم تتمره   من الثعالي ووخز من أرانيها

وإذا كان لنا من حديث حول التوحد والانقسام في اللغة، نجد أن هناك فريقاً من العلماء يتجه إلى أن اللغات إنما تتجه نحو الانقسام لا التوحد، ولكن ينبغي أن نفهم كما يرشد الواقع إلى ذلك أن اللغات تنتابها عوامل متفاوتة يدعو بعضها إلى ضرورة انقسام

اللغة وتفرعها إلى لهجات، في الوقت الذي يتطلب فيه عوامل أخرى إلى توحد اللغات واشتراكها في لغة عامة.

هناك عوامل إذا ماتهيأت تسببت في وجود اللهجات ونموها بصورة واسعة، منها توزع الجنس البشري وما يصحبه من اختلاف البيئات، ثم اتصال الجنس البشري لتبادل المنافع أو للهجرة، وأخيراً الصراع بين الشعوب..

وإذن لا يمكن للعالم أن يجتمع على لغة واحدة، وكثير من المصلحين قديماً وحديثاً قد حاولوا ولم ينجحوا..

منهم محي الدين بن عربي المتصوف الذي حاول أن يجعل لأتباعه لغة خاصة تضم شملهم في جميع البلاد، وقد كونها من العربية والعبرية والفارسية، وأطلق عليها اسم «بليبلان» ومعناها لغة المحبي. كذلك اتجه هذا الاتجاه القائد «تيمورلنك» ليسهل مهمة قواده في مخاطبة الجيوش، وتوجيه الأوامر إليهم، وكانوا خليطاً من أمم شتى، ولم يكن لعمله أثر بارز في تحقيق هذا الكيان اللغوي.

وفي العصر الحديث اتجه بعض الأمريكان إلى تكوين لغة عالمية مكونة من كلمات قليلة لايزيد عددها على ٣٢٠٠ كلمة، ظناً منهم أن هذا يرغب البشر في تعلمها ويسهل عليهم هذه المهمة وبذلك يصبح العالم وحده واحدة، ولم تخرج هذه الأمنية من حيز هذه البقعة من الأرض، وتلك سنة من سنن الله الكونية التي حدثنا عنها في محكم كتابه، فقد قال جل شأنه: «ومن آياته خلْق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالِمين».

«صدق الله العظيم»

المراجع

١) سر الصناعة لابن جنى.
٢) شرح الفصيح لابن خالويه.
٣) المخصص لابن سيده.
٤) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي.
٥) مبادىء دروس المنطق لمؤلفه جفونز.
٦) مقالات صفحة الأدب بجريدة الأهرام المصرية.
٧) اللهجات العربية ـ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر.